Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

الكتابة الرسائلية في العصر العباسي

الرسالة الديوانية أنموذجا

Epistle writing in the Abbasid era

The Diwaniya message as model

ياسر خلفاوي khalfaoui Yasser 1، فريدة لعبيدي Farida Labidi 2
1 جامعة الشاذلي بن جديد، مخبر التراث والدراسات اللسانية -الطارف-
-University of Chadli Ben Jdid- Laboratory of Heritage and Linguistic Studies – eltarf
khalfaoui-yasser@univ-eltarf.dz
2 جامعة الشاذلي بن جديد، مخبر التراث والدراسات اللسانية -الطارف-
-University of Chadli Ben Jdid- Laboratory of Heritage and Linguistic Studies – eltarf
labidi.farida@yahoo.fr
المؤلف المرسل: ياسر خلفاوي الإيميل: khalfaoui-yasser@univ-eltarf.dz

تاريخ الاستلام : 2020-10-30 **تاريخ القبول :** 2021-04-06

ملخص:

عرفت الكتابة النثرية بصورة عامة والكتابة الرسائلية بصورة خاصة تطورا كبيرا في العصر العباسي، حيث ساهمت الدراسات اللغوية الحديثة في استنطاق مختلف الخطابات التراثية منها والحديثة؛ كالرسالة الإخوانية والرسالة الديوانية؛ وسنأخذ هذه الأخيرة والتي تعدّ خطابا إداريا دراسة وتنقيبا في الماهية والخصائص مع أبرز الكتّاب ومميزاتهم ، محاولة منا إجلاء دورها في تحديد ملامح الحياة المتنوعة في عصرنا الذهبي، و سنسبق ذلك بالبحث في مفهوم الرسالة مع التدقيق على دورها الفعال كركنا مهما في كيان العملية التخاطبية التواصلية.

كلمات مفتاحية: الرسالة، الكتابة النثرية، الخطاب الإداري، العصر العباسي، العملية التخاطبية.

Abstract :

Prose writing in general and epistle writing in particular witnessed a great development in the Abbasid era, and modern linguistic studies have contributed to interrogating various traditional and modern discourses, such as the Brotherhood message and the Diwaniya message. We will take the latter, which is an administrative discourse, a study and exploration of the essence and characteristics with the most prominent writers and their characteristics, an attempt to clarify its role in defining the various features of life in our golden age, and we will precede that by researching the concept of the message while checking its effective role as an important cornerstone of the communicative process.

Keywords: The letter; Prose writing; the administrative discourse; the Abbasid era; The conversational process.

1. مقدمة:

لا تستقيم العملية التخاطبية التواصلية إلاّ بوجود الركائز الثلاث: "المرسل" و"المرسل إليه" و"الرسالة"، نأخذ في هذه المساحة البحثية الركن الثالث بالدراسة حتى ندرك معناه ونتعمق في أغواره، لنظفر بالوضوح ونجلي الغموض ونكون على بيّنة خاصة، ونحن نبحث في جنس نثري رسائلي من التراث العربي القديم لنوضح أكثر هذا العنصر اللغوي لأن ثمة نوعين من الرسالة اللغوية؛ « يهدف أحدهما إلى أن تكون معلومة أو معلومات خالصة ويقع تحت هذا النوع كل معلومة أو خبر موضوعي بدءًا من الأخبار بحدث غير ذي أهمية كبيرة، وانتهاء بأشد النظريات أو القوانين العلمية تركيبًا وتعقيدًا يكتفي المستقبل بفهمها، يكون الفهم هو المحطة النهائية لها، ويهدف النوع الآخر إلى إقناع المتلقي بمضمون الرسالة، ولذلك فإنَّ رسالة هذا شأنها يتجاوز الفهم إلى أن تكون محل اقتناع لدى المستقبل وقد يترتب على الاقتناع أن يعتقد المستقبل بصدق الرسالة لا بمجرد صحتها، وأن يجعل احتمال توجيه لأفعاله أمرًا واردًا إما بفعل الحدث وإما بالكف عنه وتركه »[1]

والرسالة الديوانية من النوع الثاني، وهي موضوع الدراسة ؛ الذي نسعى من خلاله الوقوف على أهم عناصرها وخصائصها، وكيفية ظهورها في الدولة العباسية وتطورها، وأهم الأمم المتأثرة بها، مع أهم مواضيعها، وهل هي فن عربي الأصل أم دخيل مستحب ساهم في ابراز مظاهر الحياة المتطورة في حقبة زمنية مرّ بها الانسان العربي، وستتضمن الدراسة تحديد ماهية الرسالة من حيث هي خطاب متداول في البحث اللساني، ومن ثم

نركز على الرسالة الديوانية هذا الجنس الأدبي النثري الذي تطور واكتملت معالمه في العصر العباسي.

ويقصد بالرسالة (The letter) المحتوى الذي يرغب المرسل في إبلاغه للمتلقي، ويتضمن هذا المحتوى المعلومات والأفكار والفرضيات الموجودة في ذهن المرسل الذي يعمل على إرسالها إلى متلق معين بغية التأثير في سلوكه وتختلف الرسالة بحسب طبيعة المعلومات التي تحملها: عاطفية، سياسية، إخوانية، إدارية....وبذلك « تشكل الرسالة كتلة بنيوية واحدة متماسكة الأجزاء، وأية محاولة لفصل أجزائها بعضها عن بعض تؤدي إلى تغيير الرسالة وإعادة بنائها من جديد، قد يكون محتوى الرسالة صريحا كما قد يكون ضمنيا »[2] إلاّ أنّ هذا الأخير غالبا ما يكون هو المقصود، ولذلك فنجاح العملية التواصلية متوقف على اتفاق طرفي الحوار على معنى ضمني واحد، أي أنْ يكون هناك تطابق بين ما يقصده المرسل، وما يفهمه المتلقي تقول أندي ريتشارد (Indy Richard): « طالما أنّ الاتصال هو إيصال رسالة إلى الغير، بغية تغييره أو إقناعه بشيء ما، فإنّ نجاحها يتوقف على إيصال المعنى الضمني لها، بينما يصبح فشلها التضارب بين المعنى الصريح والمعنى الضمني »[3] والرسالة هي: « تلك المتوالية اللغوية التي ينشئها صانع الكلام وما ينطوي عليه من مضمون، وكيفية التعبير عن المضمون وتحريره في رموز»[4]

وقد أخذت الرسالة حيزا كبيرا من الاهتمام لدى البلاغيين العرب، وظهرت عنايتهم في تركيزهم على كيفية بنائها وعناصر تكوينها، وعوامل نجاحها وصولا إلى ما قد تتركه هذه الرسالة من أثر في نفوس المتلقين"[5]، وقد أشار أبو هلال العسكري إلى تنوعها بحسب الأحوال والمواضيع والأجناس، من شروطها:

- حسن التأليف.

- جودة التركيب.

- حسن الوصف.

كل هذه الشروط تحقق قبول الرسالة وبلاغتها لأن الأصل فيها التأثير في المتلقي وتعديل سلوكه، حيث يقول في هذا الصدد: « أجود الكلام ما يكون جزلاً سهلاً لا ينغلق معناه ولا يستهم مغزاه، ولا يكون محدودًا مستكرها متوعرًا متقعرًا، ويكون بريئا من الغثاثة عاريًا من الرثاثة والكلام إذا كان لفظه غثًا، ومعرضه رثا كان مردودًا ولو احتوى على أجلّ معنى وأنبله وأرفعه وأفضل»[6]

الرسالة -وقد سماها آخرون إرسالية- وأطلق عليها مرسلة أو بلاغ، غير أنّ الشائع هو اصطلاح "الرسالة"، مادة التواصل مؤلفة من مضمون الأخبار المنقولة أي الصور الفكرية التي تنقل لنا الواقع أو المرجع المادي، وكذا الفكري المجرد أو الخيالي المتصور، وعرّفها "جون دوبوا" (J.Dubios) : تعتبر تقنيا عند منظّري التواصل متوالية من الإشارات تنتمي لقواعد تأليف مضبوطة، يبعثها مرسل إلى مستقبل بواسطة قناة، فتشكل القناة السند الفيزيائي للإرسال، ولا تعتبر دلالة رسالة ما في نظرية التواصل عنصرا متميزا فقط؛ بل إنّ ما ينقل ما هو إلا شكل وليس معنى، وهذا الشكل يتغير حسب طبيعة سبق التواصل والنظام (Code) الذي تبعث الرسالة تبعا له مثل: اللغة، أو الموجات الصوتية، أو الأضواء، أو الحركات، أو الذبذبات، أو الدفعات الميكانيكية، أو الكهربائية ...الخ[7]

وحسب جاكسون ينشئ نقل رسالة ما علاقة اجتماعية من مثل الإخبار أو الاستفهام أو الأمر، وهذه المسائل الثلاثة الأخيرة هي مادة الرسالة التي يحاول المرسل أن ينقلها، باعتماده على الإشارة أو متوالية من الإشارات [الإشارة صوت + معنى] ويمثل الرسالة سند الأخبار وهذا الاستفهام وهذا الأمر وتشكيل مادة الرسالة يدعى بالتركيب أو الترميز (Coding).

غالبًا ما يقوم المستقبل بتحليل الرسالة بعدما قام بتحديد شكلها، فتأخذ الرسالة شكلاً جديدًا أو نظامًا جديدًا فنقل رسالة ما هو القيام بالفعل السيمي(**) الهادف إلى إقامة تواصل بين مرسل ومستقبل بين مصدر الرسالة ومتلقيها، وأيا كانت طبيعة السيمي الذي حصل (إخبار، استفهام أو أمر) فإننا نسميه بالمصطلح العام للإخبار"مادة الرسالة "[8]

تصاغ الرسالة إذن من قواعد ذلك النظام السيميوطيقي المعروف لدى المرسل والمستقبل، وهذا ما سماه اللسانيون بالتقابل (Contrast) وهو من الضرورة بمكان لنجاح فعل التواصل[9]

والرسالة هي العنصر الثالث في العملية التخاطبية في الخطاب الرسائلي؛ عبارة عن بنى لسانية مترابطة تتضمن أخبارًا ومعلومات وأفكار ذات مقاصد محددة يتم إحداثها في قضية ما أو موضوع بعينه، ويتم تبليغها إلى متلق بعينه، فيتلقاها ويحدد رأيه فيها بالاستحسان (Acceptability) وهي أيضا استراتيجية تواصلية شاملة، كما هو الشأن في الدراسات النصية الحديثة[10]. والرسالة ليست مركباً إعلاميا مبعثراً أو تركيباً خالياً من الروابط، بل هي بنية لسانية دلالية موحدة تساهم في تشكل بنيتها الكلية روابط مختلفة إحالية وتركيبية وزمنية، وإبرازها ككتلة دلالية كاملة.

إنّ المراسلة التي هي شكل من أشكال الخطاب الإداري تعد تلك الوثيقة الإدارية الرسمية، عادة تحمل خبرًا أو موضوعًا في كل الإدارات دون اختلاف، كل ذلك من أجل ضمان السير الحسن والتنظيم الدائم للعمل الإداري الذي هو ثمرة اجتماع عقول خبرة المجتمع، وفيه يمكن أن يتضح لنا كيفية التعامل في هذا الميدان مع أفراد المجتمع، وكيفية تسيير مجتمع يسوده النظام والتطور، نظام يحدد ما على الفرد من واجبات وماله من حقوق؛ وهذا إنّما وجه من وجوه التحضر المدني بكامل مظاهره الذي يعكس تطور السياسة والمسؤولين في تسيير شؤونها إداريا في العصر العباسي؛ ممّا ضمن للدولة العباسية تدعيم ركائزها، ومن ثم تطوير جل جوانب حياة الفرد العربي في حقبة زمنية اعترف بمكانتها العالية كل العالم، هذا الحديث يجعلنا ندرك قيمة الخطاب الإداري النفعية الاجتماعية، « فحياة البشرية طبيعتها السهلة والصعبة تلزمها بتكوين الجماعات المختلفة للسيطرة على البيئة التي يعيش فيها الإنسان نظرًا لطاقاته المحدودة وإمكانياته المتواضعة، فالإنسان كائن مدني اجتماعي لا يمكنه العيش بمعزل عن الجماعة، فالإدارة وسيلة لتسيير أمر الجماعة والفرد لتحقيق أهدافه المختلفة، وقد عرفت الإدارة اهتمامًا كبيرًا منذ القديم نظرا لمتطلبات الحياة المستقرة ومقتضيات العيش المنظم. لأنّ الإدارة ما هي إلاّ نظام منسق لنشاطات وطاقات أفراد المجتمع»[11]

فالخطاب الإداري أدّى ومازال يؤدّي الدور الهام والفعال في حياة الأفراد والجماعات ويعتمد عليه كل الاعتماد في إيصال المعلومة والأوامر والاقتراحات والمواقف والأفكار، والأخبار، «فقد أثبت ثقل وزنه عبر العصور باعتباره دليل إثبات؛ ووسيلة قادرة يصعب على محررها التراجع لما ضمها من معلومات، ولكونها في متناول كافة الفئات الاجتماعية[13] ، فالرسالة الإدارية وسيلة هامة لا يمكن الاستغناء عنها لأنها تمثل « مادة عمل وميدان تطبيق، والوسيلة الغالبة في الاتصال والتواصل ونقل المعلومات، فهي وسيلة عالمية في الاتصال»[12]والمحافظة على طبيعة العلاقات الإدارية ، تشكل أيضا أكبر شاشة عارضة لما ينطوي عليه عالم الإدارة في كل حقبة زمنية، وما تنطوي عليه الحياة في كل المجالات وما مسها من رفاهية أو من بؤس، مما سبق يمكن تحديد ماهية الخطاب الإداري كالآتي:

1- «إنتاج لغوي وفكري أساسي في المجتمع فاعل فيه ومنفعل به»[13]

2- أيضا حدث لغوي منجز «هدفه التواصل بين أفراد المؤسسات الاجتماعية وله منطق داخلي ومراجع تأثير ومفاهيم ومصطلحات خاصة تبين أصالته وتفرده لسانيًا»[14]

3- «منتوج لغوي إخباري متنوع في إطار بنية اجتماعية ثقافية محددة، وهو شكل من أشكال التواصل الفّعال في المجتمع، له قدرة كبيرة على التأثير في المتلقي»[15].

4- نخلص في الأخير إلى أنّ الخطاب الإداري هو حدث لغوي مدوّن، له تأثير على المتلقي، يسعى إلى تحقيق نظام حياة الفرد في المجتمع الواحد، وتنظيم علاقاته مع غيره، له لغة تميزه من غيره من الخطابات الأخرى من حيث الألفاظ والصيغ والمصطلحات المستعملة في مراسلاته المختلفة وفق معايير وضوابط محددة سلفًا، ينهلها من اللغة العربية ليشكل بها معجمه الخاص الذي يبني به أسلوبًا متميزًا، وهذا الأسلوب مرتبط بوجود الإدارة التي تنفرد بطريقتها الخاصة في الكتابة والتحرير والتعبير عن رأيها وفق قاعدة أساسية تتمثل في مطابقة أسلوبها بموضوعها، باستعمال اللغة العربية استعمالا شاملا للتعبير عن فحواها

ومقاصدها وتوجهاتها، وأهدافها المسطرة، وفلسفتها ومبادئها الخاصة لأنّه يمثل خطابًا رسميًا، تواصليًا، إقناعيا، ثقافيًا، مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالمجتمع مؤثرًا فيه متأثرًا به.

اللّغة الإدارية لغة اختصاص، فهي تستعمل معجما خاصا بها وسمات أسلوبية مميزة. حيث تجدر الإشارة إلى أثار توظيف الشكل المكتوب من الناحية اللغوية كإطار عام تساق فيه اللغة، فكل نموذج من نماذج المراسلات والوثائق الإدارية لا تخرج عن نموذج محرّر ومعدّ من قبل، مع احترام كل الصفات ومميزات النمط الإداري وهذا الكلام يمكن تعميمه حتى على الرسائل الديوانية، ويستفاد من ذلك أنّ الكتابة مهارة فردية وأنّها تحفظ رسمية الوثيقة الإدارية، وتضمن تأثيرها الكبير على كل فرد، فيسرع في التنفيذ ولا يخالف بندًا من بنودها الموثقة فيها، وحسب "كودي" (Coody) فإنّ الكتابة من مهارات اللغة التي تستلزم مداولة التفكير والتنظيم، ولا ريب أن التفكير التحليلي لدى الفرد عند اكتسابه اللغة المكتوبة يخول له امتلاك الكلمات المفردة ومعالجة نظامها وتطوير التفكير المنطقي، ويحدد "كودي" للغة المكتوبة وظيفتين أساسيتين إحداهما: الوظيفة التخزينية التي تسمح بالتواصل عبر الزمان والمكان، والأخرى على نقل اللغة من مجال محكي إلى مجال المرئي و السماح لأنواع الكلمات والجمل خارج سياقاتها الأصلية[16] ويصف ابن خلدون الكتابة بأنّها صناعة شريفة: «فهي تطلع على ما في الضمائر، وتؤدى بها الأغراض إلى البلد البعيد فتقضي الحاجات وقد دفعت مؤونة المباشرة لها، ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين، وما كتبوه من علومهم وأخبارهم»[17] وتعتبر الرموز المكتوبة في ذاتها صلة مهمة في العلاقة بين اللغة والثقافة والبناء الاجتماعي[18] والكتابة في معناها العام هي:

«كل نظام مكاني دلالي مرئي»[19] ويشير محمد العبد إلى وجود فروق لغوية وأسلوبية بين اللغة المنطوقة والمكتوبة على الرغم من أنّ التفاعل بينهما موجود ولا يمكن غض النظر عنه في التحليل الوصفي فالمكتوبة تمد المنطوقة بكثير من صياغاتها وتراكيبها وتعبيراتها، وللمنطوقة تأثيراتها في إنشاء المكتوبة وقراءتها معا.

إنّ الكتابة جعلت من لغة الخطاب الإداري لغة منطقية لا انفعالية يقول "فندريس" (Feindress) كما أورد ذلك محمد عبد العزيز في كتابه محاضرات في علم اللغة الاجتماعي فإنّ اللغة المكتوبة تكون في الغالب منطقية في حين أن لغة الحديث هي لغة انفعالية[20] وهذا أيضا ما يؤكده "نيدا "(Nida) لغة الكتابة تجعلها أكثر انتظاما لأن الكتابة تدخل عنصرا واعيا في عملية الاتصال[21]، يقول سمير شريف إستيتية: «تدوين الرسالة يعني إنها مهيأة لديمومة التلقي وسيرورته، وأنها مهيأة لاطلاع أكبر قدر من القراء عليها، وما كان تعلم القراءة إلا من أجل الاطلاع على المكتوب من الكلام، أي من أجل تلقي كل رسالة مكتوبة وهكذا كان اختراع الكتابة من أجل التغلب على كون المرسل واحد في مكان معين، وفي وقت محدد»[22]

وبهذا فالكتابة تضمن للخطاب الإداري استمرارية وبقاء الرسالة لتظل بابًا مفتوحًا دون انقطاع بخصوصياتها الاجتماعية سريانها في ما يشبه المطلق، وبذلك تتجاوز فردية التلقي إلى كثرته ومنه إلى إمكانية العددية غير المتناهية من المتلقين، فالكتابة ضمنت وصول التراث العربي إلى الأجيال اللاحقة، ومنه الرسائل الديوانية .

نتعامل في الخطاب الرسائلي الديواني مع نصوص متنوعة؛ طويلة كانت أم قصيرة أو عبارة عن جملة واحدة أو حتى كلمة وكلها نصوص والنص: «نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض».[23]

فللنّص أهمية كبيرة بالنسبة للخطاب الإداري من حيث هو وثيقة تضمن استمرار مبادئه وتناقلها عبر الزمان والمكان خاصة، وهو يتميز بصفة الكتابة فهو كما يقول الأزهر زناد: «ترتبط أهميته في منظومة المجتمع البشري بالجانب العقلي فيها، فهو حامل العلم ومصدر التجربة، والعرفان، بل تتلخص فيه الحقيقة التي تقوم عليها كل المعارف، فهو من حيث هو كائن، ثابت ضامن لاستمرارها بالحفاظ عليها»[24]

النص هو صورة الاستعمال اللغوي في الخطاب الإداري، لأنه محكم بروابط تجعل منه مدونة ذات بنية كلية محكمة شديدة البناء، ومن خصائصه أيضا:

-إلمامه بالجملة الخبرية والجملة الإنشائية (الطلبية).

-تحكمه روابط تركيبية، وزمانية، وإحالية.

يتمحور كل ما سبق ذكره حول ماهية الرسالة وماهية الخطاب الرسائلي الإداري بصفة عامة، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هل كل الخصائص المعروفة عن الرسالة الإدارية تنطبق على الرسالة الإدارية في العصر العباسي؟ إذا ونحن نخص بدراسة الرسالة الديوانية في صفحات هذه الرقعة البحثية اللاحقة سوف نضع أيدينا على ماهية الرسالة الديوانية وكيفية ظهورها وتطورها وأهم خصائصها ومواضيعها وأهم أجزائها، وقبل خوض هذا الدرب نعرج قليلا على أهم الأوضاع السائدة في القرن الثاني والثالث للهجرة.

جسّد القرن الثاني والثالث للهجرة ذهبية هذه الحقبة من عمر الخلافة العباسية والتاريخ الإسلامي، فقد شهد هذان القرنان أزهى عصور الدولة الإسلامية في كل المجالات الحياتية، خاصة مع الامتزاج الجنسي الثقافي الذي غدت معه العربية لغة ثقافية واسعة المجال، ممتدة الجذور مع الماضي مشتدة الأواخي مع الحاضر طويلة الأفنان على امتداد الزمان لما تحوّل إليها من ثقافة الفرس واليونان، والهند ومعارف الشعوب التي امتدت إليها الفتوحات.[25]

يعد العصر العباسي عصر الإبداع في الحضارة الإسلامية، ففيه تم تشكيل الحضارة الإسلامية وتبلورها بشكلها المعروف ومميزاتها الواضحة ومع التمازج الثقافي والحضاري مع باقي الأقوام كما سبق الذكر، فلقد «برزت الحضارة العربية ذات الشخصية الواضحة السمات المميزة التي اشترك في إنتاجها عدد كبير من العروق والأجناس ذوي الحضارات المختلفة، والديانات المختلفة كما شهدت نهاية هذا العصر بداية الانحطاط والانحدار»[26]

شهد هذا العصر الذهبي تطور الكتابة بشتى أنواعها، ومنها الكتابة النثرية الفنية والتي تعد الرسالة الديوانية جنسا من أجناسها، فاتسع نشاط الكتابة في مختلف الموضوعات والاتجاهات لتعدد الروافد وتنوع الطرائق(*) في التفكير والبحث والاستخدام الجديد لأسلوب التعبير الذي حافظ على الطوابع العربية من نحوية وتركيبية، دون أن يهمل المرونة التي استوعبت لها كنوز المعرفة المنقولة، وكان لها أثر لا يدحض في العلوم اللغوية الإسلامية.[27] مما شجع أصحاب الأقلام النيّرة والمَهَرَةُ الذين أجادوا الكتابة إلى أبعد حد وذلك لتوفرهم على مادتها اللغوية(**) والأسلوبية والجمالية حتى قال الجاحظ في من كانوا يكتبون عن الساسة غالبًا إلى الرعية أنّهم «لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة، وعلى المخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى النضج المتمكن، وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق و على معاني التي إذا صارت في الصدور عمّرتها وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت اللسان بأن البلاغة ودلت مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعاني».[28] وهذا لا يأتي إلاّ لمن كان على مقدرة بلاغية ومعرفية بعلوم اللّسان العربي، فضلاً عن ثقافة العصر، ولهذا اتخذ منهم الساسة كتابهم وكذلك بعض القضاة والعلماء لأنّ تدبير الأموال والنفقات والضِياع وشؤون الخراج وما يؤديه أهل الذمة من أموال يحتاج إلى من يتقن الكتابة.

وبذلك انفسح المجال لمعالجة موضوعات متنوعة دينية ودنيوية، سياسية واجتماعية، خاصة وعامة، فمن عرف مدى تطور الحياة آنذاك أدرك أسباب كثرة المراسلات.[29]

ويرى الدكتور رابح لعوبي أنّه كثُر استعمال الوثائق الهادفة إلى ترتيب الحكم وتنظيم شؤون الخلافة وضبط كل ما يدخل في نشاطها السياسي، من قضاء الحوائج على بعد، ومتابعة أحوال الناس والعمال والجند منعا للعقوق وحفظا للحقوق، وتعبيرا عما في الضمائر، حيث لا يمكن الكلام مشافهة في مصالح الأمة وقوام الرعية، سواء في الأمور الأمنية أو الإدارية أو الاجتماعية أو الإعلامية أو الاقتصادية، وفي كل ذلك تطالعنا مضامين سياسية تنعكس علها مشاغل الساسة، كالتحذير من العصيان أو تسجيل الأحداث الداخلية والخارجية، ومن تبادلات واتصالات وعلاقات، وتنسيق وتوجيه وترهيب وترغيب، وانتداب وتكليف وتولية وعزل وتبشير وتقرير، وهو ما يدل على نشاط واسع يعوض الخطابة السياسية التي لم تعد على ما كنت عليه زمن بني أمية و إبّان قوة الأحزاب السياسية [30]، فظهر فن الترسل ومنه الرسالة الديوانية: ماذا نعني بها؟

2-الرسالة الديوانية: يكتب هذا النوع من الرسائل كما هو معلوم في غرض رسمي لتسيير شؤون الدولة، وتصدر عن

الحكام والولاة لتوطيد دعائم الحكم ومعالجة المشكلات وتصور الرسائل الديوانية الحياة الاجتماعية في ذلك العصر؛ وما كان يعتريها من ثورات.[31]

وقد اكتملت الرسالة العربية بشكل عام، والسلطانية بشكل خاص بكل معلومات الإبداع الفني خاصة على يد الكاتب البارع عبد الحميد الكاتب، والذي يعد من أبرز من يمثل هذه التغيرات والتطورات التي أشرنا إليها، إذ يعتبر أبلغ الكتّاب وأول من أطال التحميدات، فأسس مذهبا في الكتابة الفنية شاع تداوله، واشتهر واقتفى أثره من طرف الكاتب، وقد بدأ الترسل معه يتجاوز الوظيفة البلاغية التواصلية إلى تحقيق فعل الكتابة عبر الاهتمام باللفظ والمعنى[32] والديوان كلمة أعجمية أخذها العرب عن الفرس وغيرهم، ويقصد بها الموضع الذي يحفظ فيه ما يتعلق بأمر السلطنة من الأعمال والأموال، واختلف في أصل تسميتها، أما الإنشاء فهو مصدر من أنشأ الشيء ينشئه إذا ابتدعه واخترعه، ومن ثم فالأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تنشأ عنه، وتبدأ منه بإنشاء الكاتب مقالا لكل واقعة، ويعتبره القلقشندي أول ديوان وضع في الإسلام قبل غيره من دواوين الجيش والعطاء والخراج وغيرها.

ورغم ما لهذه الدواوين من أهمية في إرساء أسس الدولة الإسلامية إلاّ أنّها لم تكن موجودة في عهد الرسول «ليست في الشهرة وتواتر الكتابة في زمنه؛ (أي زمن الرسول -صلى الله عليه وسلم) كما تقدم من متعلقات كتابة الإنشاء، فقد كان عليه الصلاة والسلام يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة (رضوان الله عليهم)، ويكاتبونه وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام»[33]

إذن الرسالة هي جنس أدبي نثري نشأ جنبًا إلى جنب مع الشعر العربي، وإن كان لم ينل ما ناله جنس الشعر من اهتمام باعتباره ديوان العرب، وقد ارتبط ظهور الرسالة بوظيفة الإبلاغ والتواصل، وتطور بتطور الإنسان والتاريخ، فاكتسب صيغة أدبية متميزة، ومكانة مرموقة في التراث السردي العربي عامة، ثم أوضحت معاني الرسالة والرسول وما يتصل بهما، كما جاء في كتاب نقد النثر: «إنّ الترسل من ترسلتُ ترسل ترسلاً وأنا مترسل (...)، وأصل الاشتقاق في ذلك أنّه كلام يراسل به من بعد أو غاب فاشتقت له اسم الترسل، والرسالة من ذلك»[34]

وإن كانت الرسالة في أصلها تعني ما ينشئه الكاتب إلى غيره في غرض من الأغراض حيث تشمل الخطاب، كما تشمل الجواب، فإنّ الرسالة في مفهومها العام الشائع: خطاب يتداول بين طرفين مرسل ومرسل إليه، محمل بغايات معينة، ومتنوع من حيث الوسائل المعتمدة في بثه وتوجيهه فهناك الرسائل السماوية، الإلاهية، الموجهة من الخالق- عزّ وجل- إلى الإنسان عن طريق الوحي والرسل، وهناك الرسائل الموجهة من الإنسان إلى أخيه الإنسان ومنها الرسائل السياسية والاجتماعية أو السلطانية والإخوانية.

إنّ أول من أنشأ الدواوين في الدولة الإسلامية هو عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- فلم يكن على عهد الرسول - صلى الله عيه وسلم- ولا عهد الخليفة الأول دواوين، واستمر الأمر بعد عمر بن الخطاب، ومع اتساع الدولة وزيادة مواردها المالية اقتضى الأمر خطوة إلى الأمام على طرق التنظيم الإداري والمالي للدولة، ومع ازدهار الدولة الإسلامية في العصر العباسي انصرف الناس إلى الثقافة والكتابة للإقناع خلافًا لسلاح الخطابة في العصر الأموي، واستعاضوا عن الألسنة التي تخطب بالأقلام التي تكتب، وحلّت محل الخطابة الرسائلية الإدارية والمنشورات الدولية والمناظرات العلمية والأدبية، ولم يبق له سوى بعض الأصداء في المساجد والجوامع، تبسط للرعية الموضوعات الدينية في الجمع والأعياد وتشرحها.

تتعلق موضوعات الرسائل الديوانية بموضوعات أمور الدولة في مختلف الأغراض على الصعيدين الداخلي والخارجي والتي التي تنصرف اليها اهتممات الحكم على اختلاف قيمتها فماهي أقسام وأغراض الرسائل الديوانية ؟

3-3 أقسام و أغراض الرسائل الديوانية:

فصل فيها القول رابح العوي بإسهاب مما يمكنه تحديده في مايلي:

ترتبط المضامين التي تتناولها الأشكال الأدبية إرتباطًا كليًا بمختلف الحياة أو الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية والنفسية، لأن الأدب تعبير عن الحياة التي يحياها وتصوير للبيئة التي يعيش فيها، ومن ثمة فلا غرابة في أن تختلف المضامين أو الأغراض من زمن إلى آخر، إتجاهًا أو ضيقا أو إتساعًا، فالعطاء

الأول وتطوره خاضع لعدة عوامل ظرفية وذاتية فهو ثمرة حتمية لظواهر مختلفة ودوافع وأهداف متعددة، تلك إذن هي طبيعة الرسائل في القرنين الثاني والثالث للهجرة، فقد عدت فيهما أكثر توسعًا وأكثر معالجة لشتى الموضوعات التي انفعلت بها المشاعر والعقول، من سياسية واجتماعية وثقافية وأخلاقية ودينية ومذهبية وعصبية ...ولا سيما منذ أواخر القرن الثاني حيث كثرت موضوعاتها بل صارت تزاحم الشعر في فنونه وموسيقاه، وتقوم مقامه في إرضاء الشعور حتى نجد شعراء يحرصون على محاكاة الكتاب والعلماء، وخاصة في أواخر القرن الثاني[35] ومعنى ذلك أن شأن النثر قد ارتفع حتى بلغ أوجه في أواخر القرن الثالث بفضل جدية كتابه وكفاءتهم أنذاك، فقد عبروا ببراعة عن جميع العلوم الشائعة المختلفة من جميع وجوهها كما عبروا به عن ما يجول بالنفس من خواطر وما تقتضيه الحياة من أغراض وموضوعات شخصية واجتماعية وإنسانية، شغل بها النثر وعبرت عنها الرسائل تعبيرا نستشف من خلاله جوانب مختلفة لروح العصر وحياة الناس الخاصة والعامة، وما يتخلل ذلك من نظم ونشاط سياسي واجتماعي وديني وأدبي.

وهناك تقسيم آخر للرسائل السياسية (المتعلقة بالأغراض السياسية البحتة)

1-الداخلية: الموجهة للرعايا والأمراء والولاة: تضم الأوامر، المواعظ، والأمثال وتوجه أيضا إلى الأعلام والعلماء والصدور والفقهاء، والعدول، والأعيان والوزراء والحماة المدافعين (الجيش) والكافة (العامة)، ومن مضامينها أيضا التوجهات العقدية والدينية والأخلاقية والتعيين في المناصب، والإقالة منها وهذه الأخيرة أخطر الأصناف.[36] إذ تتعلق بموضوعات تصريف أعمال الدولة في مختلف الأغراض التي تنصرف إليها إهتمامت الحكام، على إختلاف قيمتها في الداخل والخارج.

2-الخارجية: تتناول تصريف أعمال الدولة واهتمامات الحكام في الداخل والخارج، ومضامينها تتسع بحكم التطور وظروف الحال وما يرافق ذلك من تقدم أو تأخر في النضج الحضاري، وما يتبعه من تغييرات في شؤون السياسة والمجتمع.[37] وتتعلق بكل العلاقات الخارجية مع باقي الدول.

ظهر في هذا العصر (العباسي) جماعة من نواب الحكام في الكتابة وهم الكتّاب، وهم الذين كان لهم دور كبير في تدعيم الدعوى العباسية وتمكين ملكهم بالكلمة البليغة والفكرة النيرة، والرأي السديد، فتقربوا من السلطة والسلطان، وجالسوهم في مجالسهم وصاحبوهم في أسفارهم وتقلدوا المناصب العليا، فمنهم من تولى الوزارة ومنهم من تولى ديوان الحكمة، ومنهم من تولى الكتابة في الخلافة مثل: عمرو بن مسعدة أو أحمد بن يوسف، إبراهيم الصولي، حيث تنوعت انتماءات أولئك الكتاب وثقافتهم بين الموالي إلى الفرس أو الروم أو السريان أو الأقباط أو العرب «فأصبحت الكتابة في الرسائل تتراوح بين الأخذ بأصول الكتابة التقليدية التي عرفت أول العصر العباسي، وبين إدخال عناصر على الكتابة من الثقافات الوافدة والتي رأينا ابن قتيبة ينعى عليها وينعاها، ويرى أن التمسك بالأصول العربية التقليدية والطابع الإسلامي في الرسائل الديوانية أمر ضروري، لأنّ الكاتب يكتب لخليفة المسلمين فلا يحق له أن يتجاوز ويتساهل في حق اللغة، ولا يعقل الاستشهاد بكتاب الله وآياته وحديث رسول الله، وأخبار العرب وحكمهما في أشعارهم وأن يقدم ذلك على ما في كتب الأولين من فلاسفة والمناطقة، ومن إليهم»[38]

وغلب على الرسائل بصفة عامة ما عرف بالترسل أو الأسلوب المرسل كما فعلوا للرسائل بناء يقوم على مقدمة تحوي البسملة والتحميد والاستهلال بآيات من كتاب الله تلوح عن المضمون وتوحي به، ومن ثم العرض لموضوع الرسالة الذي يعمد فيه الكاتب إلى ما يشاء من أدلة وحجج، ويوازن فيه بين الوسيلة والغاية أو بين اللفظ والمعنى والمقال والمقام، ثم يأتي بعد ذلك الختام ويتصرف فيه الكاتب، في ما يراه مناسبا على أن يحسم القضية التي عرض لها، ولا يترك مجالا للتأويل، ولا لبقية التساؤل فمعلوم أن كتابة الرسائل كغيرها من رسوم الدواوين تأثرت بالفرس وتقاليدهم.[39]

قد بلغت كتابة الرسائل في هذا العصر مكانة عالية، قاربت الكتابات الأدبية الأخرى، يقول محمد عبد المنعم خفاجة أنه: «كان للانقلاب العباسي أثر عظيم في الميول والعقول ظهر على أقلام الكتاب؛ فاستنبطوا عيون المعاني، وتخيروا شريف الألفاظ ، مما لم يكن حوشيا ساقطا سوقيا، وفتحوا أبواب البديع ، ونبغ الكتاب مع فحول الشعراء في عظمة الحياة والرئاسة

والرفاهية» [40]وقد أختلف أجناسهم من فرس وسريان وروم وقبط خاصة بعد اطلاعهم على البيان والبلاغة العربية وأسرار الفصاحة وأخذوا يحدثون في اللغة العربية مذاهب جديدة في الكتابة و قد اشتهر العديد منهم من مثل[41]:

1-محمد بن عبد الملك الزيات	9-عبد الله بن المقفع
2-وآل وهب	10-سهل بن هارون
3-بشر بن المعتمر المعتزلي	11-الحسن بن سهل
4-أبو العلاء المعري	12- الفضل بن سهل
5-سالم مولى	13-يحي بن خالد
6-هشام بن عبد الملك	14-جعفر وأيوب بن جعفر أحمد
7-بن يوسف	15-عمر بن مسعدة
8-عبد الحميد الكاتب	

وغيرهم من كتاب الخلفاء والسلاطين الذين بلغوا بقدرتهم اللغوية وبلاغتهم أرقى المناصب في الخلافة الإسلامية وكانوا أول من عين في الدواوين المتنوعة الاختصاصات.

خاتمة:

الكتابة الرسائلية فن عرفته مختف الثقافات قديما وحديثا وازداد انتشاره في الآداب الغربية والعربية، وإن اختلفت ظروف نشأته من حضارة إلى أخرى، وما يجمع عليه الدارسون أن الرسالة حدّ أدنى من المقومات المشتركة بين الآداب العالمية، ولقد كان للسانيات الحديثة بصفة عامة الدور الهام لإعادة النظر في هذا النوع من الخطابات خاصة بإعطائها أهم المناهج والنظريات التي أفرزها الدرس اللغوي، مثل نظرية التلفظ التي أسهمت في تطوير دراسة الرسائل السردية، ومنه بلورة مفهوم التلفظ الرسائلي، إضافة للبحث التداولي الذي يركز على فاعلية العملية التواصلية وعناصرها خاصة في الخطاب الأدبي باعتباره عملا تواصليا قد أضفى روحا جديدة على النص الرسائلي عامة، باعتباره نصا نثريا يحتكم إلى قواعد التفاعل القولي الذي توجهه مقاصد المتخاطبين، لذا ينبغي تسخير آليات التحليل اللساني والنقدي في تحليل الرسائل بأنواعها، سواء كانت رسائل ديوانية أو إخوانية أو رسائل إدارية، وذلك بغية فهم مقتضيات الخطاب، ومعرفة مقاصد المتخاطبين ونمط تفكيرهم وحياتهم وطبيعة اللغة المستعملة بينهم.

7. هوامش:

[1] سمير شريف إستيتية، اللسانيات، اللسانيات (المجال، الوظيفة، المنهج)، عالم الكتب الحديث، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 2004، ص70.

[2] حسين بودوح، المحاورة-مقاربة تداولية، دار عالم الكتاب الحديث، المغرب، ط1، 2001، ص34.

[3] ينظر مصطفى حجازي، الاتصال الفعال في العلاقات الانسانية والإدارية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت، ط1، 1990، ص170.

[4] عبد العزيز شرف نماذج الاتصال في الفنون والإعلام، الدار المصرية اللبنانية، مصر، د ت، ص131.

[5] ينظر سامية بن ياهنة، الاتصال اللساني وآلياته في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، دار الكتاب العلمية، لبنان، ط1، 2002، ص137

[6] الصناعتين (الكتابة والشعر) تح علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، دمشق، سوريا، ط2، د ت، ص73.

[7] نور الدين رايص، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2014، ص308.

(**) الفعل السيمي: هو نقل رسالة ما من باعث إلى مستقبل (L'acte Sémique) وهو مصطلح أطلقه جون ديبوا في معجمه Dictionnaire de linguistique P314

[8] Dictionnaire de linguistique P 14/316

[9] نور الدين رايص، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، ص310

[10] ينظر نور الدين رايص، ص310 وما يليها – حول قضية الرسالة ومتعلقاتها.

[11] محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية، العائدة للعصر العباسي الأول (132-247 هـ) (750-186 م) مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1 ، 1982، مج2، ص87.

[12] محمد الطيب العلوي، التربية والإدارة، دار البحث للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1982، ص13.

[13] حسين عيون، الدليل المنهجي في المراسلات الإدارية، مطبعة الوفاق، الجزائر، ط1، 2004، ص5.

[14] عطاء الله بوحميدة، دروس في المراسلات الإدارية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص54.

[15] بشير إبرير، سمات التداول في الخطاب السياسي (خطاب الرئيس بوتفليقة بمناسبة جائزة البابطين الثقافية) مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة، العدد 10، جوان 2004، ص37.

[16] المنصف وناس، في سوسيولوجيا الخطاب السياسي الارتكازات النظرية للخطاب السياسي العربي المعاصر، مجلة دراسات عربية، الأردن، ع08، 1982، ص30.

[17] بشير إبرير، التحليل السميائي للخطاب الاشهاري، دراسة في تفاعل الأنظمة العلامات وبلاغة الإقناع، مجلة اللسانيات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، العدد 01، جوان 2006، ص21.

[18] بشير إبرير، المرجع السابق، ص22

[19] ج براون و ج يول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطني ومنير التركي، جامعة الملك ال سعود الرياض، 1997، ص75

[20] محمد العبد، اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، دار الفكر، القاهرة، ط1، 1990، ص27.

[21] عبد الله إبراهيم وآخرون: معرفة الآخر، المركز الثقافي العربي بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص132.

[22] محمد العبد، اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، ص28.

[23] عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، دار موفم للنشر، الجزائر، 2007، ج1، ص64.

[24] محمد حسن عبد العزيز، محاضرات في علم اللغة الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، 2000، ص110.

[25] محمد حسن عبد العزيز، محاضرات في علم اللغة الاجتماعي، مرجع سابق، ص111.

[26] سمير شريف إستيتية، اللسانيات، المرجع السابق، ص693.

(*) «عرفت الكتابة منذ القديم عند العرب، فقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم- كتابه و على أيديهم تمت رسائله إلى الملوك و كذلك كان للصحابة –رضوان الله عليهم- كتابهم» ينظر محمد زغلول سلام، الأدب في عصر العباسيين منذ قيام الدولة حتى نهاية القرن الثالث، منشأة المعارف، الإسكندرية، القاهرة ، دت، ص121.

[27] الأزهر الزناد، نسيج النص- بحث فيما يكون به الملفوظ نصا- المركز الثقافي العربي، تونس، ط1، 1993، ص12.

(**) «لم تعرف الكتابة التأليفية إلا في عصر التدوين و أخريات القرن الأول، و كما أن كتابة الرسائل ظلت ارتجالية حتى وضع لها إبراهيم الكاتب أواخر العصر الأموي في بداية القرن الثاني أصولها و دستورها في رسالته المشهورة إلى الكتاب، و كتب بشر بن المعتمر في القرن الثاني صحيفته التي أورد فيها الجاحظ و وجهها إلى الكتاب» ينظر محمد زعلون سلام، الأدب في عصر العباسيين، مرجع سابق، ص 121 وما بعدها.

[28] رابح لعربي، مفاهيم الرسائل في القرن الثاني والثالث للهجرة، مطبعة المعارف، الجزائر، ط1، 2003، ص5.

[29] محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول، مرجع سابق، ص5.

[30] رابح محمد لعوبي، مضامين الرسائل السياسية في القرن الثاني والثالث للهجرة ، دار الكتاب الثقافي، د ط ، عمان ،2012، ص05.

[31] الجاحظ ،البيان والتبيين ،تح: عبد السلام هارون ،دار الفكر ،لبنان ،ط4، 2004،ص24.

[32] رابح محمد لعوبي، مضامين الرسائل السياسية في القرن الثاني والثالث للهجرة، ص06.

[33] حسن عيون، الدليل المنهجي في المراسلات الإدارية ونماذج الأعمال القضائية، ص14.

[34] أبو حيان التوحيدي، الإشارات الإلهية، تح وفق: عبد الرحمان بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 1981، ص348.

[35] حسن إبراهيم حسن، علي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، 1970، ص96.

[36] رابح لعوبي، مضامين الرسائل السياسية، ص10.

[37] رابح لعوبي، مضامين الرسائل السياسية، ص11.

[38] عبد الرحيم خلادي، مكونات الخطاب السلطاني، المرجع سابق، ص108.

[39] رابح لعوبي، مضامين الرسائل السياسية، ص74.

[40] الجهشياري، الوزراء والكتاب، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياس، وعبد الحفيظ سلبي، مصر، ط1، ص 114.

[41] محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر العباسي، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2011، ص30، 31.